بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 09 ماي 2016

تجديد المصطلح أو بناء المفاهيم عند الحبابي

محمود كيشانه
باحث مصري

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

الملخص:

تمثل قضية التجديد في المصطلح وبناء مفاهيم جديدة تضاهي القديمة أو تقوم مقامها إحدى القضايا المهمة التي بدأ الفكر العربي المعاصر ينتبه إليها خاصة عند علمين من أعلام الفلسفة العربية المعاصرة، وهما: طه عبد الرحمن، ومحمد عزيز الحبابي، وهذا الدور يعبر في التحليل الأخير عن فعل اجتهادي يحاول الانتقال بالفلسفة إلى أفق أوسع وأرحب، فضلاً عن أنّه يمثل حقًّا أصيلاً من حقوق التفلسف والاختلاف مع الآخر أيًّا كان هذا الآخر.

ومن ثم فإنّ جهود الحبابي الفلسفية كانت تعتمد في جزء كبير منها على قضية تحديد المصطلح وبناء مفاهيم تقاربية مع الواقع اللغوي والواقع الفكري، وهما الواقعان اللذان كانا يشغلان الحبابي كثيرًا، حيث لا نجد لديه قضية فلسفية إلا وعالجها من ناحية التحديد الدقيق وبناء مفهومها في الأغلب الأعم؛ محاولة منه لربط المصطلح بمدلوله المناسب في جو مفعم بالتأمل الفكري والحياد الفلسفي وصولاً إلى مدلولات يحتاج إليها الفكر الفلسفي العربي للتعبير عن وجوده الفلسفي وبناء جدار من الخصوصية الفكرية وسط عالم أباح لنفسه هتك ستر هذه الخصوصية.

إنّ مشروع الحبابي الفكري الذي عبّر عنه في مختلف إنتاجه العلمي مرتبط بقوة بقضية تجديد المصطلح، وقد عبر عن هذا الربط في اهتماماته بتجديد المصطلح أو في بناء المفاهيم من خلال القضايا وثيقة الصلة بالفكر العربي المعاصر، ومن خلال تفهم واضح لعلاقة المصطلح بالفكر الغربي في بيئته الثقافية، لكي يزيل ما علق بالمصطلح في البيئة العربية من لبس وقصور لتفاديه والانطلاق إلى المقصد الحقيقي منه والمعبر عن بيئتنا الثقافية، كل ذلك في ضوء عمليات الإحاطة بالمفهوم وتصحيحه وإجراء عملية تقويمه، وهذا كله قاده إلى الإبداع في التعبير عن مجموعة كبيرة من المفاهيم التي ما زالت تلقى رواجًا على المستويين: العربي والغربي.

ومن ثم فإنّ هدف البحث الوقوف على كيفية بناء المصطلحات في البيئة العربية والإسلامية انطلاقًا من تجربة محمد عزيز الحبابي، خاصة أنّ الحبابي وضع من خلال تجديد المصطلح وبناء المفاهيم مجموعة من الأسس المهمة التي تصح أن تكون نواة لإرساء أي مفهوم أو مصطلح يلائم البيئة العربية، وهي الأسس التي تتفادى إشكاليات النقل، وإشكالية الرؤية الأحادية، وإشكالية البيئة الثقافية التي ظهر فيها المصطلح وغيرها من الإشكاليات. كما يهدف البحث إلى استقراء وجهة نظر الحبابي في العديد من المفاهيم التي أعاد بناءها؛ خاصة وأنّه أكد على تجديد مفاهيم: الشخصانية، والوعي، وتفتح الأنا، والمسؤولية والشمول، والقوامة، والواقع، والفكرلوجيا، والأصالة والمعاصرة، وغيرها من المفاهيم التي تغني الحركة الفكرية والفلسفية العربية. وأخيرًا يهدف البحث إلى الكشف عن الخطوات المنهجية التي اتبعها الحبابي وهو في سبيل بناء المفاهيم ومدى حظها من الأصالة والمعاصرة، بحيث تمهد السبيل إلى منهج محدد في بناء المفاهيم في الفكر العربي المعاصر.

المبحث الأول - إشكاليات أولية

يمكن القول بدءًا إنّ تحديد المصطلحات أو بناء المفاهيم من الإشكاليات التي تواجه الأمم وهي بصدد بناء تقدمها الحضاري ورقيها الفكري[1]؛ إذ ليس من الممكن «فيما أعتقد أن تكون حضارة مزدهرة متألقة في أمةٍ من الأمم ما لم تواكبها جنبًا إلى جنبٍ حضارة المصطلح العلمي الذي يُكوّن بحد ذاته الإطار العام لفكر تلك الأمة وعقلانيتها، وتقدمها الإنساني كي تتبلورَ لها عندئذٍ سمات الثقافة الحقة في مضامير حياتها المتشعبة، لتصلَ في النهاية إلى تحقيق غاياتها المثلى في النظر والعمل معًا لبناء صرحها الحضاري الشامخ.. فكلما أحسنت الأمة الدقة والرؤية والعمق في تعريفاتها وتحديداتها ورسومها، بدت أكثر تألقًا ونضارة على غيرها من الأمم المعاصرة لها»[2]

إذا كان المرجو في المصطلحات أو الألفاظ الفرعية أن تكون على قدر من الدقة، فإنّه من الأولى كذلك أن تكون الألفاظ والمصطلحات الرئيسة على قدر كبير من الدقة التامة[3] إلا أنّنا لا نجد هذا المطلب في الغالب، بل على العكس، قد شاع الغموض فيها بصورة تنذر بالخطر الفكري، حيث صار لمعاني هذه المصطلحات والمفاهيم دلالات تتمدد حتى أنّها تشمل قائمة طويلة من المعاني التي لا تفي مع ذلك بمتطلبات الحياة الفكرية الآنية، وهذا أدى بدوره إلى أن صارت المفاهيم مفرغة من محتوياتها الإجرائية، فضلت السبيل إلى الوعي على حد تعبير الحبابي نفسه، فقد صار كل فرد يفهمها حسب هواه وأيديولوجيته الفكرية، كونها لم يتم تحديدها التحديد الكافي، حتى على صعيد المفكرين الكبار، فما بالنا بسائر الناس !

لقد كان الحبابي يؤكد على ما يظهر في كل سطر خطه أنّ هناك ارتباطًا وثيقًا بين اللغة والفكر، غير أنّه كان مدركًا أنّ هذا الارتباط ليس كافيًا لحمل التعبير على الدقة والوضوح؛ إذ لا شيء يمنع التعبير الواضح والدقيق من الوصول بالفكر إلى نتائج خاطئة ضعيفة، يقول أحد الباحثين الغربيين: «واستعمال اللغة بعناية وبطريقة صحيحة، وسيلة فعالة للمعاونة على التفكير القويم المباشر؛ ذلك أنّه من الضروري لكي نعبر بالكلمات عما نعنيه بالضبط أن تكون أذهاننا ذاتها مدركة تمامًا لما نعنيه، فنحن نفكر ونستدل عن طريق الكلمات»[4]. فالشرط الأساسي لكل تفكير هو الخطاب الدقيق الذي لا يشوبه أدنى لبس أو إبهام، غير أنّه لا يعطي بالضرورة فكرًا سليمًا أو فكرًا جديدًا. والخطاب الدقيق مبدأ قرآني؛ إذ «من الآثار المباركة للقرآن الكريم على العرب والمسلمين أنْ حفزهم للنشاط العقلي، ودفعهم إلى بناء حياة ثقافية تدور حول نصه المعجز،

1 انظر ابن كمال باشا، تقديم التعريفات والاصطلاحات، تحقيق وتعليق، د/ خالد فهمي، القاهرة، مؤسسة العلياء، ط1، سنة 2009، ص 3

2 جعفر آل ياسين، الفارابي في حدوده ورسومه، بيروت، ط عالم الكتب، ط1، 1985م، ص 14

3 نصر عارف، الحضارة، الثقافة، المدنية، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، تصدير الدكتور طه جابر العَلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا(الولايات المتحدة الأمريكية)، ط2، سنة 1994، ص 7

4 و. إ. بيفردج، البحث العلمي، ترجمة زكريا فهمي، مراجعة د/ أحمد مصطفى أحمد، القاهرة، دار النهضة العربية، سنة 1963، ص 150

وحين بدأ هذا النوع من النشاط، جاءتْ ملاحظاتهم الأولى مفرقة لا تجتمع في إطار فكري محدد، وساذجة يتم وصفها بعبارات غير مضبوطة ضبطًا علميًا، فكان نشاطهم يفتقرُ إلى مصطلحات تستند إلى عرفٍ فني خاص"[5]. إنّ القرآن الكريم قد استخدم مصطلحات معرفية مثل (البرهان- والحجة – والبينة – والآية)، وهي ألفاظ لها دلالتها الخاصة أو المحددة بإطار السياق العام للآية من حيث موضوعها وسبب نزولها، ولا يصح نقل هذا المصطلح المعين بالمعنى نفسه من سياق المصطلح العام إلى سياق آخر، أو نستبدله بلفظ آخر في الآية نفسها، ثم نزعم أنّ هذا اللفظ الجديد يدل على المعنى ذاته الذي يتضمنه ذلك المصطلح.[6]

فضلاً عن أنّ الحبابي كان كثير التأكيد على الربط بين اللغة والفكر باعتبارها وعاءً له، «حقًا ينبغي تجديد الفكر على اللغة المتجددة، إلا أنّ أي لغة مهما استوفت شروط الحركة والجدة، وكل فكر مهما كان توقه إلى الإبداع كبيرًا هما معًا في حاجة إلى خلفيات ثقافية، وتجارب وتقاليد علمية، وتمارين وجهود فكرية، فبلا ذلك تنحل الرابطة التي تجمعهما، وتتجمد إمكاناتهما متفردين ومتعاونين، فالدقة والوضوح، في اللغة وفي التفكير، يخولان من إحصاء الإمكانات وتمحيصها، فبقدر ما تتقوى الخلفيات الثقافية والفكرية، بقدر ما تنمو وتزدهر الإمكانات المختلفة لدى الفرد ولدى المجتمع»[7].

وهذا ما استدعى الحبابي إلى التأكيد على ضرورة تكامل حركي عند العرب، منبثق من جدل الخلفيات والإمكانات، ليستطيعوا تحليل واقعهم؛ حتى يفهموه الفهم الموضوعي، ومن ثم يدركوا أوضاعهم، إيمانًا منه بأنّ انطلاق الفكر العربي نحو التجديد والابتكار الخلاقين مرهون بإدراك ذلك ووعيه، فبالإدراك والوعي يخرج هذا الفكر في نظر الحبابي من الرتابة والتقليد، وعندها يستطيع العرب تطوير اللغة ووسائل المعارف، ويصبح التعريب جزءًا من كل الكيان العربي.

أولاً - مقاصد تجديد المصطلح في الفكر العربي:

«وما من أهلِ فن إلا وهم معترفون بأنّهم يَصطلحون على ألفاظ يتفاهمون بها مرادَهم، كما لأهل الصناعات العملية ألفاظٌ يعبرون بها عن صناعتهم، وهذه الألفاظُ هي عُرفية عرفًا خاصًا، ومرادُهم بها غير المفهوم منها في أصل اللغة، سواء أكان ذلك المعنى حقًا أو باطلاً"[8] ولذا فإنّ أولى الوسائل اللازمةِ للبدء في دراسة أي علم من العلوم معرفةُ القدر الضروري من مصطلحاته؛ وذلك لأنَّ المصطلحَ العلمي يمثلُ اللغة الفنية الخاصة بكلّ علمٍ من العلوم، والتي يستخدمها أصحابُ هذا العلم في التعبير عن قضاياهم وأفكارهم،

5 د/ تمام حسان، المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1987، مجلد 7، العددان (3، 4)، ص 21، وانظر سعيد شبار: المصطلح خيار لغوي.. وسمة حضارية، قطر، سلسلة كتاب الأمة، سنة 1421هـ، العدد 78، ص ص 37-41

6 انظر د/ محمد السيد الجليند: تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين، القاهرة، مكتبة الزهراء، سنة 1990، ص 9

7 انظر الحبابي، مفاهيم مبهمة في الفكر العربي المعاصر، القاهرة، ط دار المعارف، 1990م، ص 16

8 ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق د/ محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2، سنة 1979، 1/222-223

وربما استغلقتْ على غيرهم، ولكن ضرورات البحث العلمي المتخصص ومقتضياته استوجبتْ نشوء هذه اللغة القائمة على العُرف الخاص والمواضعة بين أصحاب كلِّ فن أو علمٍ في مجال تخصصهم[9].

يمكن القول إنّ العرب قد اهتموا بالمصطلحات اهتمامًا كبيرًا؛ باعتباره أحد الركائز التي تقوم عليها أي نهضة حضارية، واستفادوا من الأمم الأخرى في طريقة وضعه الملائمة له.[10] وهي الغاية نفسها التي ينطلق منها الحبابي الذي كان ينطلق في بنائه لمفاهيم الفكر العربي المعاصر أو تجديده للمصطلح من مقاصد مهمة تمس تفعيل قيم الإسلام والعروبة معًا؛ إذ كان مدركًا أنّ العرب لن يكونوا على وعي بمصيرهم ولا بقدرتهم على مواجهته إلا بعد أن يتبلور مفهومه في ذهنهم.

مفهوم المصير الذي يريد الحبابي أن يدركه العرب يمثل معاناة وممارسة تعكس رؤانا عن التاريخ بماضيه وحاضره، وعن تصوراتنا للمستقبل لما يتأسس عليه من العقل والعلم، بما يعني أنّ المفاهيم تصورات قابلة للتحقق تدعو إلى تفكير علمي وعملي، وكذلك إلى منهج واضح ودقيق.[11]

فبناء المفاهيم هي الخطوة الأولى التي يستطيع بها العرب مواجهة المصير، إذ إنّ الحبابي كان يدرك أنّنا لا نستطيع مواجهة المصير بمفاهيم غير دقيقة مبنية على تفكير مبهم، أو منهج غير واضح، ففهم المصير وكيفية مواجهته عنده مبني على تعابير واضحة لا مفاهيم تقصر عن الوفاء بإظهار محتوى المعاني؛ لافتقاد الألفاظ الدقة والضبط، فدور اللساني العربي عند الحبابي أن يعكس قدرة الفكر العربي على التواصل. والمتأمل في كتابه الشخصانية الإسلامية مفهوم الشخصانية بدلالته الإسلامية كأحد الوسائل التي تعكس قدرة ذلك الفكر يجد اهتمامًا واسعًا لأهمية الدقة والوضوح في بناء المفاهيم، وكيف يرسي الحبابي منهجًا في كيفية نقد المفاهيم بوصفها مرحلة أولى لإعادة بنائها البناء الصحيح باعتبار اللغة العربية التي هي لغة القرآن والثقافة الإسلامية لن تبلغ مصاف اللغات الأخرى من ناحية الاستعمال ما لم تنهج المفاهيم مرحلة الدقة[12]. كذلك الأمر في كتابه من الحريات إلى التحرر، فقد أراد بناء مفهومين واضحين دقيقين للحرية والديمقراطية على أرض الواقع، إذ ما أبعد ما بين النظرية والتطبيق فيما يتعلق بمفهوميهما، فإذا كان المفهومان واضحين عند الناس، فإنّهما عند الحبابي لم يكونا واضحين البتة؛ كونهما لم يتم تطبيقهما على أرض الواقع، فالحبابي لم يكن يعنى بالمفهوم من الناحية النظرية فحسب، ولكن كان يعنى به من ناحية النظرية والإجراء.[13]

9 انظر د/ حسن الشافعي: المدخل إلى دراسة علم الكلام، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، سنة 1991، ص 231

10 انظر د. إبراهيم كايد محمود، المصطلح ومشكلات تحقيقه، دمشق، مجلة التراث العربي، سنة 2005، العدد 97، ص 25

11 انظر محمد عزيز الحبابي، مفاهيم مبهمة، ص 5

12 انظر الحبابي، الشخصانية الإسلامية، القاهرة، ط دار المعارف، الثانية، 1983م، ص ص 14، 19

13 انظر الحبابي، من الحريات إلى التحرر، القاهرة، ط دار المعارف، 1971م، ص 16

لقد عرض الحبابي بالدراسة للعديد من المفاهيم المبهمة التي كثيرًا ما تروج الآن في فكرنا العربي، والتي تلوكها الأفواه وتتناقلها الألسنة، في حين أنّها لم تتبلور التبلور الذي يأخذ بها إلى مرحلة الوضوح والبيان، فضلاً عن أنّه عرض بالدراسة في بعض كتبه لبعض المصطلحات التي تم تداولها على المستويين: السياسي، والصحافي، وأحدثت الكثير من الضوضاء دون أن تمس العقول تحت أي نسق إجرائي يذكر، فالشقة كانت بعيدة بين النظرية والتطبيق، أو بين اللفظ والمضمون. ومن ثم كان على الحبابي وهو بصدد تناوله لهذه الموضوعات أن يحدد الفترة الزمانية التي يخضع لها تناوله، ومن ثم فقد تناول المصطلحات في البيئة الفكرية المعاصرة، كما كان عليه أن يختار بعض المفكرين المعاصرين له، وقد كان أن اختار كتّابًا لهم شعور حاد بالواقع العربي ووعي بأنّ الشعوب العربية في التخلف متساوية، وأنّ جميع مسؤوليها مطالبون بمراجعة شاملة.

لقد كان الدافع الرئيس الذي دفع الحبابي إلى الاهتمام بتجديد المصطلحات أو بناء المفاهيم، أنّ المفاهيم الأساسية أو ما يسميها المفاهيم العمدة تسبح في بحر من الضباب، ويتبحر معها في الغموض النسق الفكري العربي عند الغالبية من المفكرين والكتاب، بل وعند من يعدون قادة الفكر العربي، ومن ثم فقد آل على نفسه مناقشة هذه المفاهيم، وهي تلك المناقشة التي نظن أنّها أزالت الكثير من الغموض أو الضباب الذي أحاط بكثير منها، ولفت النظر إلى بعضها، تاركًا للمفكرين بعده مواجهة هذا الغموض أو ذلك الضباب بمنهجية واضحة لا لبس فيها.

ومما لا شك فيه أنّ هناك بعض المفكرين العرب الذين يتزعمون اتجاه تحديد معاني الألفاظ تحديدًا جامعًا مانعًا، لا يجوز لنا أن نغمطم حقهم، إلا أنّ الحركة العلمية والمنجزات والاكتشافات التي تتسارع في الظهور الآن جعلت من عملية تحديد المفاهيم أو الألفاظ الدالة عليها عملية صعبة للغاية؛ إذ لا نظن أنّ حركة المفاهيم تواكب هذا التقدم العلمي أو حتى المذاهب الفكرية التي بدأت تطغى على الساحة الفكرية العربية دون تحديد مفهوم واضح لها.

ومن ثم فقد آل على نفسه مناقشة هذه المفاهيم التي استعملها هذا المؤلف أو ذاك، محاولاً أن يظهر علاقة التفكير بالمصطلحات أو المفاهيم، غموضًا أو وضوحًا، وانعكاسات هذا الاستخدام على الذهن الجماعي، فقد كان تأكيده على ضرورة الحذر من استخدام المصطلحات، تعكس معنى مغلوطًا في ذهنية القارئ العربي، وعليه فقد كانت الوسيلة المثلى التي يستطيع بها الفكر العربي أن يتجاوز هذه الإشكالية، أن يمتحن الكاتب ما يكتب وهو يكتب، وأن يتصور لمن يكتب، فالبلاغة عنده ليست مخاطبة الناس على قدر ما يفهمون – وهو المنطق السائد الآن – وإنّما البلاغة عنده أن يبين الكاتب للناس قصده بالصيغ التي تجعل القارئ أو المستمع يفهم، بالقدر الذي يريد هو أن يبلغه إياه، فاللغة التي تنزل بالناس ولا ترفعهم إلى مرتبة التثقف والإسهام

في صناعة الحوار تعد أداة تحجر وجمود عنده، «إنّ اللسان العربي هو وجه الفكر العربي في التواصل، وإنّ التواصل مجرد تعبير فكر يتجسد نظريًا أو فعليًا، كما أنّه معيار لكل فعل مسؤول، به يميز الخطأ من الصواب، والقبيح من الحسن، فإذا لم يكن لنا لسان دقيق مبين، افتقدنا الفكر الصحيح المستقيم»[14]

ولا ننكر أنّه من ضمن المقاصد المهمة التي جعلها الحبابي نصب عينيه وهو بصدد تجديد المصطلح أو بناء المفهوم هو المساهمة في إشاعة روح الوضوح والتوضيح والدقة؛ إيمانًا منه بأنّ اللغة الدقيقة هي القالب الملائم للفكر الدقيق، وأنّ اللغة المبهمة أو التقريبية تمثل ارتباكًا للعقل وتعلثمًا للتفكير، ذلك أنّ غياب ألفاظ واضحة الدلالات يعد مظهرًا من مظاهر التخلف الذهني والثقافي، الذي يقود لا محالة إلى الجمود الفكري والتخلف الحضاري.

وعلى الرغم من أنّ الحبابي ينقد الغموض الذي يحوط المفاهيم على مدار تاريخنا فإنّه – في تواضع جم – لا ينفي عن نفسه ما وصف به غيره من الغموض، فما السبب؟ السبب يذكره قائلاً: «الملاحظات التي سنوجهها لكاتب أو لآخر ونحن نناقشه، ملاحظات كثيرًا ما تنطبق أيضًا على هذه الصفحات؛ لأنّنا نحن كذلك لا نصل إلى الوضوح المنشود، فهي كذلك لا تصب على أحد عتابًا، بل تكتفي بتسجيل ظاهرة عدم الدقة في مختلف الخطابات العربية، فكأنّ الغموض طبيعة أصيلة في تاريخ الولع بالفصاحة اللغوية، منذ العصر الجاهلي حتى عصور الانحطاط التي نمته وأثرته، وعندما واجهنا العصر الحديث بضغوطه الاستعمارية وتقاعسنا الحضاري ازداد الوضع تأزمًا، لذلك نعتبر التأمل في هذه الظاهرة سبيلاً إلى نقلها من مستوى فوضى عشق اللغة لذاتها، إلى صعيد الوعي بوظائفها الطبيعية الحياتية، فبدون ذلك لن يتأتى عبر هذه الرحلة الشائكة، الإسهام في إجلاء الغموض»[15]

فشغل الحبابي الشاغل هنا هو الشغل الأساسي الذي ينبغي أن يضطلع به كل المفكرين العرب، وهو التخاطب دون التباس، حتى يتم القضاء على المسافات المتداخلة والمتشابكة التي تفصلهم عن الواقع، ليتم التوصل إلى بر للأمان ليس فيه لبس ولا غموض ولا بلبلة، فالكلام الواضح الدقيق يعبر عن عقل ناضج وفكر سليم، أما اللبس والغموض فينحط بنا جميعًا – كما يرى – إلى واقع الحمار، متأثرًا بتوفيق الحكيم عندما قال: «أليس كلامي هو الواقع؟... عندما ألاحظ وأقول إنّ برامجنا كلها واحدة، وألفاظنا واحدة، وشعاراتنا واحدة، وهتافاتنا واحدة، ولا بأس عندكم الآن أن نقول إنّ نهيقنا أيضًا له نغمة واحدة»[16]

14 انظر الحبابي، مفاهيم مبهمة، ص ص 6، 7

15 الحبابي، مفاهيم مبهمة، ص 16

16 توفيق الحكيم، حوار مسرحي (بين العصا والبيري والحمار) جريدة الأهرام، 1976م، وانظر الحبابي، السابق، ص 111

وعليه فقد عول الحبابي على قضية التعريب باعتبارها إحدى القضايا التي تثير كثيرًا من الغموض في حالة لم يف التعريب بمدلول المصطلح المعرب أو الدخيل، ومن ثم لم يكن من الغريب عنده أن تكون هذه القضية من المباحث التي لها مكان الصدارة في الاهتمام العربي المعاصر، بالقاهرة مقر مجمع اللغة العربية، أو بدمشق أو بغداد أو عمان فضلاً عن معاهد اللسانيات ومراكز التعريب المنتشرة في العديد من الأقطار العربية، إيمانًا منه بأنّ عودة الوعي أو عودة الروح لن تتم إلا بلسان عربي مبين.

ثانيًا - إشكاليات الصياغة في بناء المفاهيم الاصطلاحية للعلوم الإسلامية:

لا نستطيع أن ننكر ذلك الجهد الذي بذله الحبابي في هذا الميدان، ذلك الجهد الذي يدل في التحليل الأخير على مقدار ما كان يريده من محاولاته في بناء المفاهيم، حيث أراد خطة منسقة تثمر نتائج إيجابية كبيرة، ولم يرد محاولات غير منسقة كتلك التي يقوم بها بعضهم، والتي تسير بلا خطة، وتحمل نتائج ضئيلة لا تتناسب مع قيمة الفكر المأمول، بل لقد وجد فيما حصد من تلك الجهود عبارة عن فوضى في التعبير وفي التفكير، بسبب ضعف المنهج وتصارع الألفاظ المقترحة لتسمية الشيء الواحد. خاصة وقد أصبح اللسان العربي - في رأيه - لسان استلاب لا يجلي بدقة كثيرًا من المضامين التي يرمي إلى التعبير عنها، من كثرة ما أصابه من إبهام، فقد صارت جل المفاهيم لا تعانق واقع العرب وكثير منها مستعار من مجتمعات غربية.[17]

ثالثًا - إشكاليات المصطلح بين الجمود والتحرر.

تعد إشكالية المصطلح بين الجمود والتحرر من الإشكاليات الأساسية التي كان الحبابي يحاول إيجاد حل لها، ولا نحسبه إلا متهمًا فيها الكثير من المثقفين العرب المغتربين المستلبين فكريًا وسيكولوجيًا، فقد رآهم يرتابون في كل شيء متصل بواقعهم، ومن ضمن الواقع – لا شك – قضية تحديد المصطلح أو بناء المفاهيم بدقة ووضوح، وعليه فقد وضع الحبابي ثلاثة شروط للوصول إلى حل في هذه القضية من جهة المثقفين والمفكرين، وبدون هذه الشروط سيبقى المثقفون العرب من وجهة نظره يتنكرون للتطور مع عجزهم عن تحليل واقعهم المعيش والتكيف معه، [18]:

الأول، القدرة على التحرر من الهيمنة المطلقة للغرب على ذهننا ومشاعرنا.

الثاني، التحرر من الانبهار والاستلاب.

الثالث، الالتزام بمراجعة المواقف ونقد العقل.

17 انظر الحبابي، مفاهيم مبهمة، ص 8

18 انظر الحبابي، مفاهيم مبهمة، ص ص 25، 26

وقد استطاع الحبابي أن يزيل العديد من أوجه اللبس التي لحقت بالعديد من المصطلحات التي شاعت في البيئة العربية نتيجة تواصل المفكرين مع واقعهم أو مع الفكر الغربي، خاصة مصطلحات واقع، قومية، أيديولوجية أو فكرولوجيا.

المبحث الثاني - المصطلح وأثره في إزاحة الالتباس في الفكر العربي:

- المصطلح وأزمة الغموض في الفكر الإسلامي المعاصر:

كان الحبابي على اعتقاد جازم بأنّ هناك من المثقفين من يعي بوضوح أوضاع أوطانهم ويتحسس المصير العاجل والآجل، بفضل ما لهم من قدرة وإرادة على مواجهة الأحداث والتعامل معها وسبر أغوارها، ومن هؤلاء المثقفين من لا يستطيع حتى طرح الإشكاليات بعيدًا عن الشعارات وغوغائية الألفاظ؛ لأنّهم يفتقدون المنهج والموضوع، فأنّى لهم تقييم الحال أو وضع تصور للمآل؟! وهؤلاء في نظر الحبابي سلبيون إلى أقصى درجات السلبية إلى حد أنّهم يشعرون بالأزمة ولا يتحركون وفق نية حسنة أو حتى إرادة حسنة.

يقول الحبابي: «لا يبعد أنّ جل الأسئلة التي وضعناها هنا سابقًا (حول الفكروبوجيا – فكرولوجيا قومية) لم تطرح بعد على المثقفين العرب، وربما أنّ بعضها طرح بأفكار مسبقة، لأنّ الأوضاع لم تتبلور لديهم، فإبهام النظريات يعكس مضامين المفاهيم التي بنيت عليها، والعكس أيضًا صحيح، فأدوات التعبير تؤثر في النسق بكامله، وربما لم تدرس المعطيات بالقدر الكافي، ميدانيًا ونظريًا، فذابت رؤانا عن المصير، وتضبب التعبير عنها، إن لم يكن العكس، أي أنّ ضبابية المفاهيم هي سبب تلاشي تصوراتنا للمصير»[19]

ومن ثم يتساءل الحبابي إلى من توجه التهمة: هل إلى التعريب الذي يسير متأرجحًا بلا منهج؛ حتى صرنا عاجزين عن التنظير، وعن التعبير بدقة عن النظريات؟ ومن المسئول عن تأرجح التعريب واضطرابه وعن غموض المفاهيم الأساسية والتباسها، وعن القطيعة بين أصحاب الفكر والجماهير؟

لقد كان الحبابي على دراية واسعة بأنّ كثيرًا من المفاهيم الرائجة في الفكر الإسلامي تحدث التباسًا أو فراغًا في الفكر محاولاً أن يجيب على سؤال مؤداه: ما الذي يفرضه إبهام المفاهيم عامة؟ متخذًا من مفهومي الفكرولوجيا (الأيديولوجيا) ودروها في المجتمع، والقومية كعواطف وكتوتر ذهني دليلاً حيًا على ذلك. ومن ثم فقد نقد الواقع الأليم الذي سار عليه كثير من المفكرين الكبار في عالمنا العربي فيما يتعلق باستخدامهم للمفاهيم، حيث كان نقده لهم عبارة عن مناقشة ممزوجة بالألم والحسرة، وذلك يظهر جليًا في قوله: «تظهر تلك المناقشة أنّ كتابات أولئك المفكرين كتابات مشعة وجميلة، ولكنها كالعربسات، أي بلا أول محدد وبلا

19 الحبابي، السابق، ص 38

نهاية بارزة، نورها متفش ينشر الانشراح، بيد أنّه قلما يحرض الفكر على التقدم، والوعي على التفتح؛ لأنّ إبهام المفاهيم يحدث فراغًا فكريًا، ويعمق الحيرة أمام التخلف، إنّ أسلوب جل الكتاب العرب المعاصرين يعطي فواكه لها رائحة جذابة، إلا أنّها عديمة الطعم، ووحداتها الحرارية ضئيلة، وفائدتها الغذائية هزيلة، كتابات منمقة وجميلة تقدم طيفًا بلا لون لافتقادها الدقة، والوضوح»[20] وهذا يفسر لنا لماذا كان الحبابي يرى في اللغة منبعًا للإبداع والتوعية، وليس نسقًا للتزييف والقمع أو تغييب الشعوب، ذلك أنّ الوضوح والدقة هما ما يعدلان اللغة ويكسبانها القدرة على الإيصال والتواصل.

إنّ أزمة الغموض في الفكر العربي المعاصر يقودها في نظر الحبابي اتجاهان متعارضان:

الأول، من يتنكر للواقع والتراث.

والثاني، من يدافع عن الواقع والتراث.

فالفريقان لم يجدا أسلوبًا للاقتناع بوجهة نظر الآخر، فالمدافع يستعمل منطق العواطف وأحيانًا العنف في التشهير بالخصوم، أما المتنكر فيستخدم أسلوب السخرية في تعال وبأسلوب تجريدي صرف، فالأول حجته غير مقبولة لما تنطوي عليه من ضعف المنهجية وعنف مبالغ فيه، والثاني بمبالغته في التجريد فإنّه يميع المفاهيم، وبالتمييع تختلط المواقف نفسها، فإنّ مما يفقد الخطاب تماسكه المنطقي في نظر الحبابي فوضى التعبير وتفكك أنسجة التواصل، كما أنّ مما يحدث سوءًا في إدراك المفاهيم تضارب التأويلات فبعضها يضعف المعنى وبعضها ينفخ في المفاهيم متجاوزًا الحد الممكن[21].

- بناء المفاهيم الإجرائية ودورها في تحقيق الآمال المشروعة:

كان الحبابي مهمومًا بمناقشة المفاهيم الرئيسة في الخطاب الثقافي العربي المعاصر كمحاولة على الطريق للتخطيط لمشروع يهدف إلى رسم مخطط واضح ولو إجرائيًا ننتهي من خلاله إلى مرحلة فهم المفاهيم وإلباسها ثوب الوضوح والدقة، خاصة تلك المفاهيم الرائجة عند مفكرين وكتاب معاصرين، لننتهي إلى فهم مكتمل متفق عليه بعيدًا عن الفهم المزدوج أو الفهم التقريبي الذي يثير من الشبه أكثر مما يدعو إلى الإقناع. فقد تنبه إلى أنّ هناك بعض المفاهيم التي يتم تداولها في البيئة الفكرية العربية، وعلى الرغم من كونها تعد مباحث وحقولاً ذات وجهة دلالية واضحة، فإنّها مع مزيد من التمعن والتفحص فيها يتراءى له مدى التباسها وازدواجيتها، ومن ضمن تلك المفاهيم التي اتخذها الحبابي دليلاً على فكرته هنا مفهوم تعريب، ومن ثم فقد وضع شرطين ضروريين لإعادة بنائه الإجرائي، وهما:

20 الحبابي، مفاهيم مبهمة، ص 10

21 الحبابي، السابق ص 61

- ما المقصود من المفهوم؟

- ما محصلة إنجازه أو نتائجه؟

ولا شك في أنّ السؤال الأول يحاول الانطلاق إلى تأسيس إطار نظري من خلال تأسيس لغوي واضح وتأسيس اصطلاحي مبني على واقع في بيئة المفهوم، في حين يحاول السؤال أو الشرط الثاني قياس مدى النتائج التي أسفرت عن استخدام المفهوم، ومحصلة الشرطين معًا تعني أنّ الحبابي يريد أن يجمع في دراسة المفهوم بين النظرية والتطبيق. ويتأكد هذا جليًا في قول الحبابي: «إنّ (تعريب) شعار واختيار سياسي - سياسة التعليم - وثقافي ووطني، إنّه مجموع نوايا وأفعال، فلا مندوحة لمن يود أن يتفحص هذا المفهوم من التحري حتى لا يفصله عن نتائجه، فكون التعريب مناهج وعمليات، وأمانة والتزامًا، يفرض قبل الحكم له أو عليه، أن ينظر إليه من حيث إجرائياته، لقد تجاوز لفظيته، وبات سلوكًا وأخلاقًا، فهو إذن خاضع لمعايير مجتمعية، أي قابل للمحاسبة وأحكام القيمة»[22]

المبحث الثالث - أسس بناء المفهوم:

- تحديد المفهوم في اللغة والاصطلاح:

كان الحبابي يهتم كثيرًا وهو في سبيل بناء المفهوم أو تجديد المصطلح بالمرور على الجانب اللغوي، فتلك كانت الخطوة الأولى التي كان يخطوها في هذا الصدد، نذكر من ذلك مثلاً كلمة شعب، إلا أنّ هذا لا يعني أنّ الحبابي كان شغله الشاغل الجانب اللغوي، بل على العكس تمامًا فقد وجد في اللغة الكثير من القصور الذي لا يفي بمطلوبه، وهو بصدد بناء المفاهيم أو تجديد المصطلحات، وعليه فإنّه لم يكن يتناول المفاهيم من وجهة نظر معجمية، كما أنّه لم يتناول الألفاظ في حقولها الدلالية، أو من وجهة نظر لسانية، بل كان يتناول كل مفهوم في وسط مجموعة من المباحث باعتباره عنصرًا في تركيب نظرية أو رؤية، وهذا كان جل اهتمام الحبابي، ومن ثم استلزمت مناقشته لمفهوم ما من المفاهيم أن يتناوله ضمن عدة مباحث، وكل مبحث يستدعي بدوره تدخل مباحث أخرى يطرحها في صيغة تساؤلات، أو في ضرب الأمثلة، خاصة عندما كان يتخذ موقفًا أو عندما يجري مقارنة.

إلا أنّ الحبابي كانت تعوزه وهو بصدد بناء المفاهيم أنّ المعاجم العربية قد تكون لا تفي بمقصوده اللغوي الذي يريد بناء المفهوم عليه، وهي إشكالية ناتجة عن واقع الفكر العربي ذاته؛ إذ اللغة قرينة الفكر، وإذا أصاب الفكرُ تطورًا ما يستتبعه بالضرورة التطور اللغوي، وبما أنّنا أمة عالة على غيرها فكريًا فإنّ

22 الحبابي، مفاهيم مبهمة، ص 9

التراجع يصيب هذه اللغة لا محالة، «صحيح أنّ اللغة العربية لا تزال تفتقر إلى كثير من المصطلحات العلمية الدقيقة التي تجعلها تساير التقدم العلمي والتكنولوجي الحديث، ولكن هذا لا يرجع إلى قصور اللغة العربية ذاتها، أو إلى عجزها وعدم قدرتها على التعبير، وإنّما يرجع إلى تخلف العرب، بوجه عام عن مسايرة العلم وعن الحضارة الحديثة، وعدم مشاركتهم في صنع التقدم، فاللغة تتبع الفكر، وتعبر في الوقت ذاته عن الفكر، وليس أمام العرب في المرحلة الحالية من تاريخهم سوى استعارة المصطلحات المرتبطة بالحضارة، الحديثة التي لا يشاركون في صنعها وتعريب هذه المصطلحات بقدر الإمكان»[23]، وهذا سيؤدي لا محالة - وهذا ما ذهب إليه محمد عزيز الحبابي - إلى إحداث عملية إغناء للغة العربية، بحيث يترتب عليه خير في اللغة والفكر.[24] وفيما يتعلق بدور اللغة في تحديد المفاهيم يقول الحبابي: «على المعاجم العربية أن تبحث عن طرق لتكييف العربية طبقًا لحاجات العصر، ولإخراج التعريب من شعارات إلى تطبيقات عملية، كما يجب على المجامع أن تنظم شبكات لتوزيع منشوراتها داخل كل المعاهد التعليمية، في مجموع العالم العربي، بالوسائل التي تخول الإسراع في الخطوات، فيماشي سيرها صيرورة التكنولوجيا، والعلوم الطبيعية والاقتصاد والعلوم الإنسانية، فالمعاهد العليا والجامعات كالمجامع مطالبة هي كذلك بأن تسهم في خلق القدرة على الابتكار عند الطلاب، وبأن تحارب القوميات الطائفية التي تجعل كل قطر من العالم العربي يفضل لهجاته ودارجاته على الألفاظ والتعابير الجارية في باقي أو جل الأقطار الأخرى»[25] غير أنّ الحبابي كان فطنًا إلى شيء من الأهمية بمكان وهو أنّ الابتكار المأمول لا يعني أن نفتح أبواب البدع اللفظية على مصراعيها، والتي لا تخضع لقواعد اللسان العربي، إذ كان يرى أنّه بدون تقنين الاتجاه الابتكاري لا يؤتمن على اللغة العربية، فضلاً عن التفكير العربي ذاته، من الانسياق مع القوقعة واحتكار الجدية والحزم في كل مسعى مستقبلي إيجابي.[26]

وكان الحبابي لا يألو جهدًا وهو بصدد التأصيل اللغوي للمفهوم في الاستدلال بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، غير أنّه لم يكن غرضه من هذا الاستدلال الدعوة إلى الإسلام أو الخلط بينه وبين مصطلحات عرب وعروبة، خاصة وأنّ أغلب المفاهيم التي أصل مفهومها تنتمي إلى دائرة المفاهيم العربية وليس الإسلامية، غير أنّنا رأينا فيه أنّه لم يستطع دراسة الواقع العربي بمعطياته المفاهيمية في إطارها التاريخي واللساني والثقافي وهي بمعزل عن المعطيات الإسلامية، باعتبار أنّ الإسلام أثر تأثيرًا قويًا بلا شك في كل أبناء أرض العروبة، ولا يزال تأثيره مستمرًا. ولذا وجدناه يقول: «إنّ تجاهل بعض الإخوان العرب (من

23 أحمد أبو زيد، هوية الثقافة العربية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2013م، ص 27

24 انظر محمد عزيز الحبابي، اللغة العربية والمجامع، بحث ضمن أعمال ندوة اللغة العربية والمجامع اللغوية، الخطة الشاملة للثقافة العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ط الكويت، 1986م، ح3، ص 637

25 محمد عزيز الحبابي، مفاهيم مبهمة، ص 6

26 انظر محمد عزيز الحبابي، السابق، ص 6، للمزيد انظر له أيضًا اللغة بين التجميد والابتكار، العلم الثقافي، الرباط، المغرب، العدد 502: 506

مسيحيين وملاحدة ومسلمين أيضًا) للمعطيات الإسلامية في إطارها التاريخي، ولتعابير متعارف عليها، أسهم ويسهم بحظ وافر في إحداث الالتباس الذي يعانيه اللسان العربي»[27]

- المنظومة المفاهيمية التي ينتمي إليها المفهوم:

كان الحبابي معنيًا في دراسته للعديد من المفاهيم أو المصطلحات بتحديد المنظومة المفاهيمية التي ينتمي إليها كل مفهوم أو مصطلح، بمعنى هل هو مفهوم مركزي أو ما يمكن أن نطلق عليه مفهوم مظلة أو مفهوم عمدة، بمعنى أنّه يمثل مفهومًا رئيسًا تلتف حوله العديد من المفاهيم الفرعية بحيث تكون حقلاً دلاليًا يكون هو عمودها ومحورها الرئيس الذي تدور حوله، أم بمعنى مفهوم تابع لمفهوم رئيس يدور حيث يدور، يمكن القول إنّ اهتمام الحبابي في الغالب كان منصبًا على النوع الأول الذي كان يسميه الألفاظ المفاتيح، وهي تلك التي لها حقول دلالية ومفهومية، ولها روابط وصلة بغيرها. وهي نفسها الألفاظ التي كان يراها معدودة على الرغم ممّا تنوء بحمله القواميس من ضخامة.

ومن ثم يمكننا القول إنّ الحبابي كان يحاول أن يضع مفاهيم مظلة أو مركزية في فكرنا العربي المعاصر تمثل حقولاً دلالية للعديد من المفاهيم الفرعية، يتضح ذلك من خلال تقسيمه المفاهيم إلى أربعة حقول دلالية، وهي عربي، وشعب، وتاريخ وعقيدة، وقد ربط بكل مفهوم منها مجموعة من المفاهيم الفرعية التي ارتأى الحبابي نفسه أنّها قابلة للتغيير منه شخصيًا أو من غيره من المفكرين، بحيث طرح المخطط، وترك للقارئ حرية نقده وتعديله حسبما يتراءى له. وقد كانت خطته هنا لا تنبني على التعريبية أو المعجمية، وإنّما كانت خطة تحليلية تحاورية باعترافه هو، حتى يتمكن من سبر إبهام المفاهيم المختارة[28].

وقد قام الحبابي بوضع مخطط للمفاهيم الرئيسة في واقعنا العربي المعاصر والمفاهيم الفرعية التي تندرج تحتها، كما هو موضح في المخطط التالي:

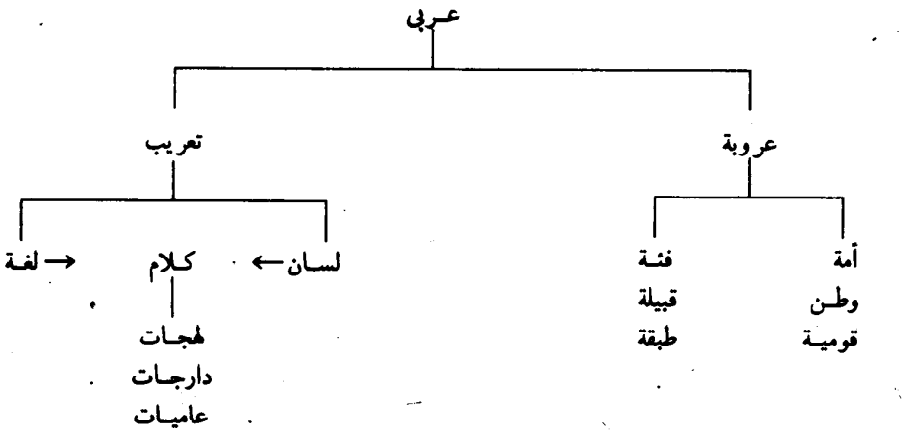

27 انظر الحبابي، السابق، 7

28 انظر الحبابي، مفاهيم مبهمة، ص 12: 14

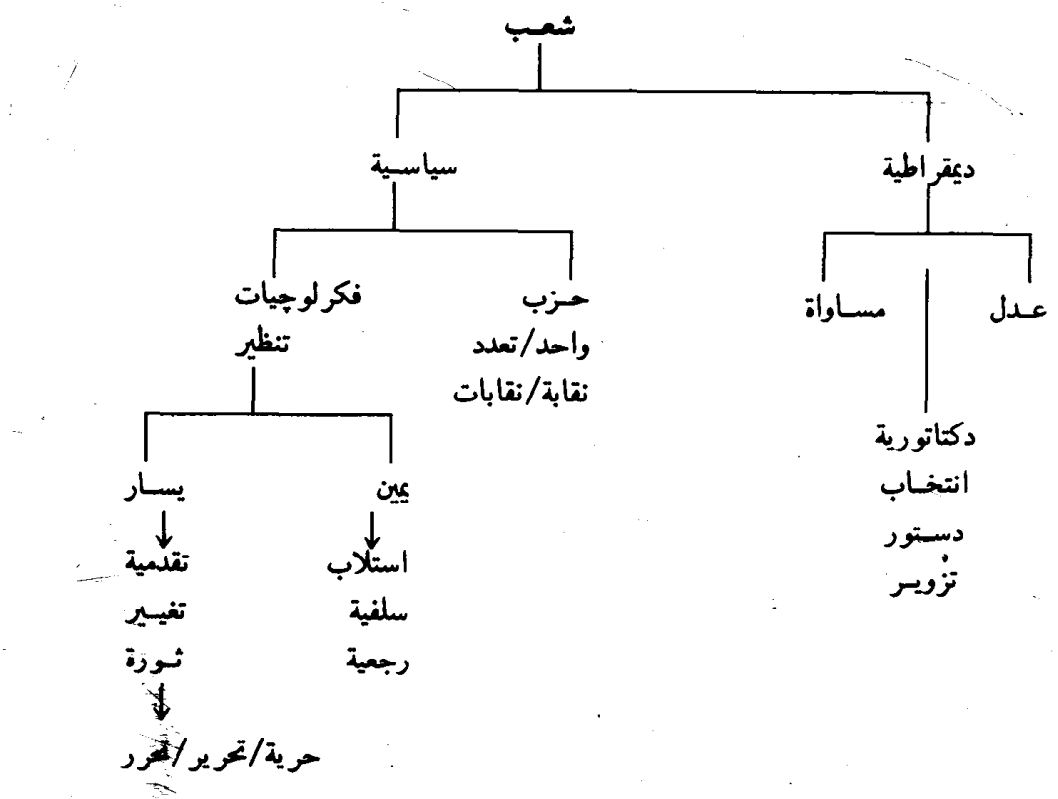
شعب
ديمقراطية
سياسية
عدل
مساواة
حزب
واحد/تعدد
نقابة/نقابات
فكر لوچيات
تنظير
دكتاتورية
انتخاب
دستور
تزوير
يمين
يسار
استلاب
سلفية
رجعية
تقدمية
تغيير
ثورة
حرية/تحرير/تحرر

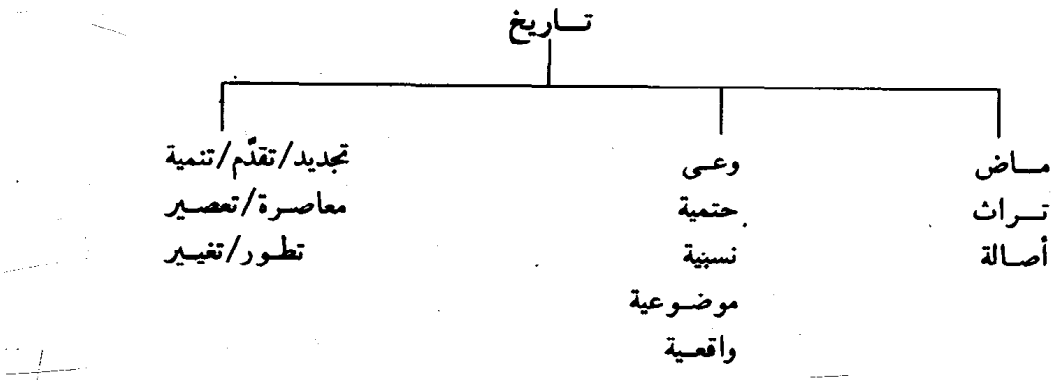
تاريخ
ماض
تراث
أصالة
وعي
حتمية
نسبية
موضوعية
واقعية
تجديد/تقدّم/تنمية
معاصرة/تعصير
تطور/تغيير

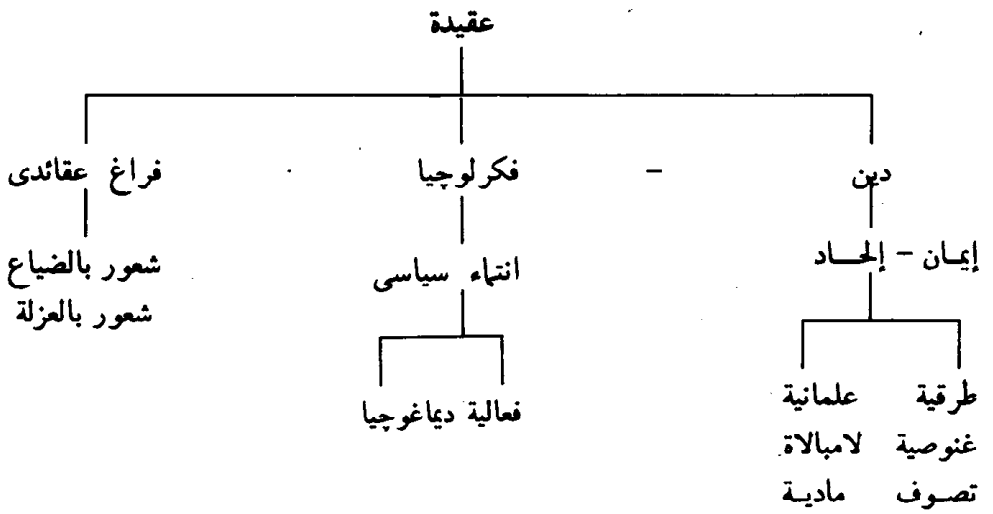
عقيدة
دين
إيمان – إلحاد
طرقية
غنوصية
تصوف
علمانية
لامبالاة
مادية
–
فكر لوچيا
انتماء سياسي
فعالية ديماغوچيا
فراغ عقائدي
شعور بالضياع
شعور بالعزلة

ومع ذلك فقد توقع الحبابي ما يمكن أن يوجه إليه من نقد في ترتيب جزئيات بعينها من مخططه المفاهيمي هذا، فكان أسبق بالمبادرة إلى تأكيد أنّ هذا الترتيب في جداوله التخطيطية قابل لتغييرات كثيرة سواء من قبل الحبابي نفسه، أو من قبل غيره من المفكرين أو حتى القراء، ذاهبًا إلى أنّه يمكن الاستغناء بتاتًا عن بعض المفاهيم المثبتة أو تعويضها بغيرها؛ لأنّ المهم عنده أن ينطلق البحث من معطيات تظهر للمؤلف أثرها في أداء المطلوب.

فليس من المحرج عنده أن تحول مواضع الألفاظ داخل مجموعة، أو أن تنقل من مجموعة إلى مجموعة أخرى، مستدلاً على ذلك بلفظ سلفية، فقد وضعه في حقل سياسة ومتفرع عن يمين، فقد كان من الممكن أن تكون متفرعة عن يسار، وليس هناك ما يمنع أن تكون متفرعة عن حقل تاريخ أو حقل عقيدة. والأمر نفسه ينطبق على لفظ تقدمية، يتقلص معناه عند الحبابي أو يتمطط تبعًا لمواقف مستعمليه السياسية والفكرولوجية، مستندًا إلى أنّه كما يعتقد الاشتراكي اليساري أنّه تقدمي، كذلك يدعي الليبرالي اليميني أنّه ينتسب من منظاره الخاص إلى التقدمية. فما يريد أن يؤكده الحبابي من خلال تحليل للمخطط المفاهيمي الذي انتهى إليه أنّ أي مفهوم لا يدخل في الاستعمال حياديًا؛ إنّه يحمل معه دائمًا نصيبًا، قد يقل وقد يكثر، من ذاتية المستعمل، والذاتية بدورها تنفعل مع المفاهيم انفعالات مختلفة، حسب أوضاع المتحدث - أو الكاتب أو السامع أو القارئ- وحسب أحواله الشخصية[29].

- خصوصيات المفهوم في البيئة العربية.

يمكن من خلال استقراء منهجية الحبابي في تحديد المصطلحات أو بناء المفاهيم أن نستخلص مجموعة من الخصوصيات المهمة التي يجب أن ينبني عليها أي بناء محدد أو تحديد واضح للمفهوم، ونوجز هذه الخصوصيات في الآتي:

أولاً – البعد عن الأفكار المسبقة التي تشي بالتحزب:

إذ إنّ الحبابي فيما نظن كان يرى أنّه لا غضاضة من الانطلاق من أفكار مسبقة جاهزة شريطة أن تفهم الواقع كواقع وتصفه وصفًا يساهم في بلورته وبلورة المفاهيم المتعلقة به، ولكن الأمر مختلف ونحن بصدد مفهوم بصدد تعريفه، فليس من المنطقي أن ندافع عن مفهوم أو نرفضه ونحن تحت إملاءات مذهبية أو إلحاحات أيديولوجية[30].

---

29 الحبابي، السابق، ص 14

30 قارن نشأة المصطلحات الفلسفية في الإسلام، د/ إبراهيم مدكور، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، مطبعة وزارة المعارف العمومية، سنة 1953، الجزء السابع، ص ص 141 -142 وكذلك قارن محاضرات في تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية، لويس ماسينيون، تحقيق د /زينب الخضيري، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، بدون تاريخ، ص 8

ثانيًا – عدم إسقاط المصطلح على بيئة غير البيئة التي وردت فيه:

إسقاط المصطلح على بيئة فكرية غير البيئة التي نشأ فيها بكل حذافيره أمر من الخطورة بمكان على الفكر، فقد كان مثلاً يرى أنّ من المغالطات التي تقضي بالفكر العربي إلى الالتباس أن توصف الفكرولوجيا بعربية ـ أي تسند عمليات تتصل بالذهن والفكر والمعتقدات إلى الجنس العربي، أو إلى جنس آخر، فعندما تلتصق فكرولوجيا بعرق وقومية وتصبح عربية مثلاً فإنّها تصطبغ عنده بعنصرية إن قليلاً وإن كثيرًا[31].

ويؤكد الحبابي ذلك بأنّ الماركسي الكوبي أو الإيطالي أو البولاندي على الرغم من اختلافهم لغة وجنسًا، فإنّهم ينتمون إلى اتجاه فكري يتخذون مواقف متشابهة من تلك القضايا، ويتفقون منهجيًا في تحليلهم للقضايا، والأمر نفسه ينطبق على الوجوديين، حيث إنّ كيير كغادر الدانماركي المسيحي، وهايدجر الألماني البروتستانتي، وسارتر الفرنسي الإلحادي، وليفيناس الفرنسي اليهودي كلهم ـ عند الحبابي ـ يلتقون في نقطة الانطلاق الأولى وكيفية وعي الوجود، وإن كانوا من ثقافات ولغات وأجناس وأديان مختلفة.

ثالثًا – ارتباط العقلي بالوجداني في بناء المفاهيم:

على من يريد بلورة المفاهيم في نظر الحبابي ألا يقف عند حدود ما هو عقلي فقط، وبطرد الخيال والعاطفة والوجدان وما إليها من مقومات الشخصية الإنسانية[32]. وإن كان هذه الخصوصية غريبة بعض الشيء كونها تدخل العاطفي والوجداني في العلمي أو الفكري، فإنّها من جانب تعبر عن استقراء واضح للواقع. بيد أنّه على كل حال ليس المقصود من ذلك إدخال العاطفي في الفكري، ولكن الحبابي يدرك أنّه ونحن بصدد بلورة مفاهيم تتعلق بالأمة أو المسيرة فإنّنا نحتاج أولاً أن نشعر بها وجدانيًا، وأن تتملكنا من كل أعماقنا، فنشعر بها وبأهميتها، وحينها يستطيع المفكر أن يعبر عنها نظريًا في صورة ألفاظ.

رابعًا – أن يحاكي المفهوم الواقعين التاريخي والمحسوس:

نحن إذا ألقينا بناظرنا إلى المصطلح أيديولوجيًا نجد أنّ الحبابي يقف موقفًا ناقدًا بشدة لمن يصف الأيديولوجية بعربية، فيقول: أيديولوجيا عربية، أو فكرولوجيا عربية، وهذا ما ذهب إليه عبد الله العروي في كتابه: الأيديولوجية العربية المعاصرة[33]، يقول الحبابي ناقدًا هذا الوصف: «لو نسبت فكرولوجيا مثلاً إلى الأمة الإسلامية عوضًا عن القوم العرب لحل الإشكال، فأمة في الإسلام شعور بالوحدة، بوحدة تناغم فيها الفوارق السلالية واللسانية والثقافية والقبلية والطبقية، ولا يبقى إلا الاتجاه العقائدي المشترك، وما ينجم

31 الحبابي، السابق، 23

32 الحبابي، السابق، ص 16

33 انظر عبد الله العروي، الأيديولوجيا العربية المعاصرة، بيروت، المركز الثقافي العربي، ص ص 3، 27

عنه في الممارسات، فاستعمال عبارة فكرولوجيا عربية قاصر عن تأدية محتوى الشعور بالوحدة العقائدية والثقافية والوجدانية، الذي يطبع مفهوم أمة حقًا، إنّ في مضمون أمة تآلفًا معنويًا أخلاقيًا، يوحد السلوك والأهداف، وفي هذا تلتقي مع بعض الفكرولوجيات؛ لأنّ غاية هذه هي أن يتم إجماع حول اتجاه عقائدي معين، ومع الغاية تفقد كل رؤية الكثير من الموضوعية»[34]

إنّ الحبابي من خلال هذا النص وغيره من النصوص يؤكد ضرورة مراعاة الواقع التاريخي والواقع المحسوس ونحن بصدد إطلاق مصطلح فكري من المصطلحات، فمصطلح فكرولوجيا عربية، لا يعبر عن الواقع التاريخي ولا الواقع المحسوس للأمة العربية، فهل يستطيع أحد مثلاً الحديث عن فكرولوجيا فرنسية أو فكرولوجيا بريطانية؟! إنّ من يفعل ذلك في نظر الحبابي ليس إلا متنكرًا للواقعين السابقين في كل من البلدين، بيد أنّنا نفهم أنّ الحبابي لا يرفض مصطلح فكرولوجيا عربية على الإطلاق وإنّما يرفض أن يكون المصطلح غير معبر عن هذين الواقعين، فوصف فكرولوجيا عربية يفترض عند الحبابي أنّ الوحدة العربية قد تمت، وحصل اتفاق العرب في وجهات النظر، في حين نشاهد تفرقة تتسع شقتها، واتجاهات اقتصادية وسياسية تتصارع وتتضارب، من أقصى يمين إلى أقصى يسار، فلو قيل تجاوزًا فكرولوجيات عربية لاقتربنا في نظره إلى حد ما إلى جانب من جوانب الواقع، لأنّ وجهات النظر العربية تختلف داخل الدولة العربية الواحدة كما يقول مع تقلبات الفصول الطبيعية، ومع تصاعد الضغط الدموي وانخفاضه لدى الرؤساء.[35]

خامسًا ـ أن يكون المفهوم جامعًا مانعًا يعبر عن جميع ما يندرج تحته:

فقد رفض الحبابي ما قدمته المعاجم العربية لمدلول لفظ شعب؛ كونها لم تقدم مفهومًا جامعًا مانعًا، وقد استدل على موقفه هنا بمعجمين كليهما حجة، الأول المعجم الوسيط، والثاني معجم متن اللغة، حيث جاء في المعجم الوسيط أنّ لفظ شعب يعني أولاً: جماعة كبيرة ترجع لأب واحد وهو أوسع من القبيلة[36]، ومن ثم فقد انتقد هذا التعريف على أسس واقعية قائلاً: «حسب التعريف السابق لا شعب لتشيكوسلوفاكيا؛ لأنّها لا ترجع لأب واحد، فالسلوفاك من أصل مغاير للتشيك، ونفس الشيء بالنسبة للمغرب؛ لأنّ الأمازيغ والعرب والأندلسيين (أصل أسباني)، واليهود لا يمكن أن يكونوا شعبًا، رغم وحدة الدين ووحدة الوطن ووحدة التاريخ ووحدة اللغة القومية الرسمية؛ لآن الآباء مختلفون»[37]

34 الحبابي، مفاهيم مبهمة، ص 30

35 الحبابي، السابق، ص 32

36 انظر المعجم الوسيط، استانبول، ط المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ج 1، مادة شعب.

37 الحبابي، السابق، ص 70

وجاء في المعجم الوسيط أنّ لفظ شعب يعني ثانيًا: الجماعة من الناس تخضع لنظام اجتماعي واحد[38]، وهذا التعريف أيضًا لم ينل رضا الحبابي لأسباب منطقية عقلية:

الأول، لأنّ النظام الاجتماعي غير محدد.

الثاني، لأنّ النظام الاجتماعي قد يكون واحدًا في العديد من الدول على الرغم من اختلاف شعوبها، «لأنّ الليبرالية تطبع المجتمعات بنظام مجتمعي خاص، نجده هو نفسه تقريبًا في ألمانيا الغربية، وفرنسا مثلاً، إلا أنّه رغم تشابه النظم المجتمعية يبقى الشعب الألماني مخالفًا للشعب الفرنسي، كذلك الدول الاشتراكية (من العينة اللينينية) تخضع لنظام مجتمعي من طراز واحد، ولكن الشعب الروسي ليس هو شعب ألمانيا الشرقية، بل إنّ السوفيتيين في أوكرانيا رغم أنّهم في الاتحاد، وينتسبون إلى أسرة واحدة مع السوفياتيين الروس لا يكونون وإياهم شعبًا واحدًا»[39]

وكان آخر ما جاء في المعجم الوسيط وانتقده الحبابي أن عرف لفظ شعب ثالثًا بمعنى الجماعة تتكلم لسانًا واحدًا، مستندًا إلى أنّ هذا التعريف يليق بقبيلة أو عشيرة أو فئة، إلا أنّه لا يليق بشعب دولة ما، مستدلاً بأنّ سويسرا مثلاً تتحدث بأربعة آلاف لسان، وكلها وطنية ورسمية، ومع ذلك جميع السويسريين ينتمون إلى شعب واحد، والأمر كذلك وجده ينطبق على يوغسلافيا والصين.

وفي معجم متن اللغة يعرف لفظ شعب بأنّه: القبيلة العظمى: أبو القبائل الذي ينتسبون إليه، وفي تعريف آخر: لكل جيل شعب[40]، وقد انتقد الحبابي هذين التعريفين، فعلى الأول فإنّ أفراد القبيلة المجاورة ليسوا إذن من شعب القبيلة العظمى، على الرغم ممّا يمكن أن يجمعهم من وحدة اللغة والأرض والمعتقدات والنظم، وعلى الثاني فبماذا نسمي الأجيال المختلفة التي توجد على أرض واحدة وتخضع للنظم السياسية والإدارية نفسها؟ ومن ثم يتساءل مستنكرًا أنطلق عليها بصيغة الجمع شعوب؟![41]

وإذا كان الحبابي قد انتقد التعريفات المعجمية للفظ شعب، فقد انتقد أيضًا معاني شعب القديمة والحديثة في الأوساط الشعبية، فقد يطلق على الطبقة الدنيا، وقد يطلق على جمع من الأفراد دون تحديد للكم أو الكيف، وقد يطلق في مقابل الحكام وذوي السلطة، وقد يطلق على الفقير في مقابل البرجوازي، وقد يقال الرجل الشعبي بمعنى الأمي غير المتمدن أو الأجلف. ومن ثم يقول الحبابي معلقًا على ذلك: «تبلغ البلبلة حدها

38 انظر المعجم الوسيط، مادة شعب.

39 الحبابي، السابق، ص 70

40 انظر الشيخ أحمد رضا، معجم متن اللغة، موسوعة لغوية حديثة، الناشر: دار مكتبة الحياة - بيروت; سنة النشر: 1378 – 1959، مادة شعب ..

41 انظر مفاهيم مبهمة، ص 71

الأقصى، فعندنا شعب، ولكن بلا تعريف، إذن: يتكلم المثقفون والسياسيون عن الشعب وباسمه، ولا أحد حدد ما يقصده ! إنّها فوضى لغوية بمردودها السلبي على التفكير»[42]

فلا مفر من وصف الحبابي ذلك بالتمثيلية مجهولة المؤلف التي أجبرنا على مشاهدتها في غيبة عن المخرج، والديكور في صناديق مغلقة، إنّ الحبابي يلقي باللائمة فيما يخص تلك الفوضى اللغوية على المثقفين، ومن ثم يقول: «أين هم المثقفون ليجهضوا التعلمن، أي العلم المغشوش والأوهام فندخل أخيرًا إلى الواقع؟ الكل متهم ويتهم إلا الشعوب العربية؛ لأنّها لم تصبح بعد واعية، فكثير من مفكريها لا يمثلون دورهم بجد وصدق، إنّهم ينقلون المأساة إلى ملهاة، في سهرات وكؤوس، أو في مناقشات عن الكفاح الكلامولوجي، من أجل الشعب والحرية والديمقراطية، وفي تلك السهرات يأتي الحديث عن الشعب، فتمطر نعوت من أفواههم: الشعب دهماء وحثالة وسوقة وغوغاء و.... وفي هذه المفارقة تتحول اللعبة إلى مأساة، وأخيرًا ينتقل الحديث إلى الديمقراطية؛ ليملأ الكؤوس، وقد بلغت الثمالة»[43] وهو يتفق في ذلك مع الدكتورُ زكي نجيب محمود الذي أرجع علةَ العلل في حالةِ الجمود الفكري العربي المعاصر إلى الغموض الفكري وإلى عدم تحديد المفهومات التي تدور حولها موجّهاتُ الحياة العلمية كمفهومِ الديمقراطية، والاشتراكية، والرأسمالية، وما إلى ذلك من المحاور في حياة الفكر[44].

- تفكيك المفهوم وتشغيله.

إنّ الألفاظ عند الحبابي مثل الكائن الحي، يسكن المعاجم ويتجاوزها، فهو عنده حي ومليء بالمفاجآت، يلد ويولد، بما يعني أنّنا في مرحلة تفكيك المفهوم يجب علينا أن ننتبه إلى أنّ المفهوم قد مر بمجموعة من المراحل حتى وصل إلى المرحلة التي انتهى إليها في فكرنا العربي المعاصر. ولكن هل اكتفى الحبابي بكونه مجرد شاهد على تلك المفاهيم التي راجت في هذا الفكر، يتبنى موقف الشاهد الملتزم، أم أنّ موقفه يتغير بالحد الذي تفرضه عليه معاناته للحياة اليومية؟ أم كانت محاولاته تتعدى ذلك إلى مرحلة تفكيك المفهوم بغية سبر أغواره للبدء في عملية بنائه؟

لقد كان الحبابي وهو في سبيل تفكيك المفهوم الشائع في البيئة العربية يسير على مجموعة من الخطوات:

الأولى، بيان مصدرية المفهوم في بيئته الأصلية.

---

42 انظر السابق، ص 71

43 الحبابي، السابق، ص ص 71، 72

44 انظر: دور اللغة في تجديد الفكر العربي عند زكي نجيب محمود، د/ ميرفت عزت بالي، ضمن كتاب "زكي نجيب محمود مفكرًا عربيًا ورائدًا للاتجاه العلمي التنويري"، تصدير وإشراف د/ عاطف العراقي، دار الوفاء، الإسكندرية، سنة 2001، ص 193

الثاني، بيان اختلاف البيئة العربية عن البيئة التي ورد فيها المفهوم إذا كان وافدًا.

الثالث، طرح أوجه النقد في صياغة المفهوم الشائع.

الرابع، طرح البدائل الممكنة.

ويمكن أن نتخذ مثالاً على ذلك بتفكيكه لمصطلح فكرولوجيا = الأيديولوجيا، فأكد مصدرية المفهوم الغربية، والمعنى المراد منه في تلك البيئة التي نشأ فيها، واختلافه عن تلك التطبيقات التي تمارس في البيئة العربية، كأن يقال فكرولوجيا عربية أو أيديولوجية عربية، طارحًا أوجه النقد المنطقية والعقلية على هذا التوجه الفكري، لينتهي إلى طرح المفاهيم المقبولة مع طبيعة الفكرولوجية، وفي الوقت نفسه تكون مناسبة لواقعنا العربي، وهو ما سبق شرحه في سطور سابقة.

ولا مانع عند الحبابي وهو بصدد تفكيك المفهوم أن يستثير الأفهام بطريقة أو بأخرى، وطريقة الأسئلة الاستنكارية أو التهكمية إحدى الوسائل التي كان يستند إليها في ذلك، ويظهر جليًا عندما يقول: «هل أحسنت تلك الفكرولوجيات العربية توظيف الألفاظ والتراكيب؟ هل أعطت مفعولها؟ إنّها خطابات تفرز مفاهيم ثم تكسبها رواجًا مبهمًا متكاثرًا. هل الأزمات المتتالية ماضيًا وحالاً هي السبب؟ أم أنّ فقدان فكرولوجيا جديدة متماسكة لخدمة الوعي العربي العام والذي يكون المحيط للأزمات؟ أولاً: من يتكلم من خلال الخطاب الفكرولوجي؟ وباسم من؟ ما هي اللعبة الخفية وراء الأقنعة الكلامية التي تحجب الرؤية؟ ولحساب أية غاية؟»[45]

لقد كان الحبابي وهو بصدد عملية التفكيك يحيل على نصوص لمفكرين عرب تمثل مظهرًا للأزمة من وجوه مختلفة، ويحاول من خلال نقدها الإجابة على الأسئلة السابقة، وهو في سبيل تحليله لهذه النصوص كان يتجاوز ما بها من رمزية وإشارات، إلى الاهتمام بعلاقات الدال بالمدلول وعلاقات التراكيب والأساليب بالمشروع، وهذا هو شأن من يهتم بتحديد المفاهيم أو تجديد المصطلحات، إذ كان مما يألم له الحبابي أن يتجه المفكر إلى التعقيد الذي يتجلى في صورة جمل قصيرة مختصرة حتى الغموض، أو في جمل طويلة ومتداخلة ومتشعبة، فكلا الأمرين كانا وما زالا يعدان من الظواهر التي تعيق سبل التواصل الفكري، وما زالت الشعوب في غفلة من أمرها.

وبالجملة فإنّ مرحلة تفكيك المفهوم وتشغيله عند الحبابي تنبني على الخطوات الأربع الآتية:

الأولى، تفكيك المفهوم بتحديد مكوناته الأساسية والثانوية

45 الحبابي، ص 28

الثانية، تحديد شبكة العلاقات بين مكوناته الأساسية والفرعية.

الثالثة، تفعيل المفهوم في النسق المعرفي.

الرابعة، تفعيل المفهوم في الواقع العملي المعيش.

الخاتمة:

يمكن أن نستخلص من هذه الدراسة مجموعة من النتائج التي تمخض البحث عنها، نذكر من أهمها:

أولاً – أنّ الخطاب الفلسفي عند الحبابي كان خطابًا تجديديًا من الدرجة الأولى، وكان أهم ما استند إليه في هذا الخطاب الفلسفي التجديدي هو محاولة بناء مفاهيم صحيحة أو تجديد المصطلحات في الواقع الفكري العربي.

ثانيًا – الواقع العربي الفكري المعاصر في حاجة ماسة إلى بناء مفاهيم صحيحة أو تجديد المصطلحات كخطوة إلى نحو البناء الحضاري الذي نأمله لكل مجتمعاتنا العربية، وقد كانت كل السطور التي خطها الحبابي تنزع هذا المنزع.

ثالثًا – قضية تحديد المصطلحات وتجديدها تمثل ضرورة علمية يسعى إلى ضبطها وتحديدها المفكرون والمثقفون في كل الأمم والثقافات المختلفة، فلا يمكن بحالٍ من الأحوال أن تتقدمَ أمة أو تزدهر حضارتها دون العناية التامة بأمر المصطلحات.

رابعًا – بناء المفاهيم له أسسه وخطواته الإجرائية التي تقود إلى إرساء مدلولات للمفاهيم الرائجة في بيئة الفكر العربي صحيحة إلى حد كبير، وقد اتبع الحبابي الكثير من هذه الأسس في بنائه للمفاهيم، ومن تلك الخطوات:

الدلالات اللغوية.

المنظومة المفاهيمية التي ينتمي إليها المفهوم.

خصوصيات المفاهيم.

البيئة الأصلية التي ينتمي إليها المفهوم.

تفكيك المفهوم.

تشغيل المفهوم.

خامسًا – تؤكد دراسة المفاهيم عند الحبابي ضرورة الاهتمام بها بحيث تكون على المقدار المطلوب من الدقة والوضوح، وعدم انحراف مدلولاتها عن سياقها، خاصة وأنّ الكثير من المفاهيم في فكرنا العربي المعاصر مستوردة – إن صح التعبير – من الفكر الغربي الذي يمارس نوعًا من التقييد المعرفي بهدف الهيمنة على الثقافات وفرض سطوتها عليها، وأداتها في ذلك النفوذ اللغوي الذي يعبر عن فكرها وثقافتها، أكثر من تعبيره عن فكرنا وثقافتنا نحن.

مسرد المصادر والمراجع:

- ابن كمال باشا، تقديم التعريفات والاصطلاحات، تحقيق وتعليق، د/ خالد فهمي، القاهرة، مؤسسة العلياء، ط1، سنة 2009م.
- جعفر آل ياسين، الفارابي في حدوده ورسومه، بيروت، ط عالم الكتب، ط1، 1985م.
- نصر عارف، الحضارة، الثقافة، المدنية، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، تصدير الدكتور طه جابر العَلَواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فيرجينيا (الولايات المتحدة الأمريكية)، ط2، سنة 1994
- و. إ. بيفردج، البحث العلمي، ترجمة زكريا فهمي، مراجعة د/ أحمد مصطفى أحمد، القاهرة، دار النهضة العربية، سنة 1963م.
- تمام حسان، المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة 1987، مجلد 7، العددان (3، 4).
- سعيد شبار: المصطلح خيار لغوي.. وسمة حضارية، قطر، سلسلة كتاب الأمة، سنة 1421هـ، العدد 78
- محمد السيد الجليند: تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين، القاهرة، مكتبة الزهراء، سنة 1990
- الحبابي، مفاهيم مبهمة في الفكر العربي المعاصر، القاهرة، ط دار المعارف، 1990م.
- ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق د/ محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2، سنة 1979
- حسن الشافعي: المدخل إلى دراسة علم الكلام، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، سنة 1991
- إبراهيم كايد محمود، المصطلح ومشكلات تحقيقه، دمشق، مجلة التراث العربي، سنة 2005، العدد 97
- توفيق الحكيم، حوار مسرحي (بين العصا والبيري والحمار) جريدة الأهرام، 1976م.
- عبد الله العروي، الأيديولوجيا العربية المعاصرة، بيروت، المركز الثقافي العربي.
- أحمد أبو زيد، هوية الثقافة العربية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2013م.
- محمد عزيز الحبابي، اللغة العربية والمجامع، بحث ضمن أعمال ندوة اللغة العربية والمجامع اللغوية، الخطة الشاملة للثقافة العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ط الكويت، 1986م، ح3، ص 637
- محمد عزيز الحبابي، اللغة بين التجميد والابتكار، العلم الثقافي، الرباط، المغرب، العدد 502: 506
- إبراهيم مدكور، نشأة المصطلحات الفلسفية في الإسلام، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، مطبعة وزارة المعارف العمومية، سنة 1953، الجزء السابع.
- لويس ماسينيون، محاضرات في تاريخ الاصطلاحات الفلسفية العربية، تحقيق د/ زينب الخضيري، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، بدون تاريخ.
- المعجم الوسيط، استانبول، ط المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، ج 1، مادة شعب.
- الشيخ أحمد رضا، معجم متن اللغة، موسوعة لغوية حديثة، الناشر: دار مكتبة الحياة - بيروت; سنة النشر: 1378 – 1959، مادة شعب ..
- ميرفت عزت بالي، دور اللغة في تجديد الفكر العربي عند زكي نجيب محمود، ضمن كتاب» زكي نجيب محمود مفكرًا عربيًا ورائدًا للاتجاه العلمي التنويري"، تصدير وإشراف د/ عاطف العراقي، دار الوفاء، الإسكندرية، سنة 2001
- الحبابي، الشخصانية الإسلامية، القاهرة، ط دار المعارف، الثانية، 1983م.
- الحبابي، من الحريات إلى التحرر، القاهرة، ط دار المعارف، 1971م.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016

All rights reserved © 2016